

دور الاسلام
في نهضة الشعوب

لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي

نص المحاضرة التي القاها سماحة
السيد ابي الحسن علي الحسيني الندوي
في ثانوية طيبة بالمدينة المنورة
يوم ٢٣ شعبان ١٣٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

دور الإسلام في نهضة الشعوب

إن عملية المقارنة بين الأرباح والخسائر ، عملية حيوية ، و شرط من شروط الحياة السعيدة ، إن هذه العملية لا يستغنى عنها أى رجل يعرف قيمة حياته و يعرف قيمة صناعته ، و يعرف قيمة الحقل الذى يعمل فيه .

إنه لا يستغنى عنها تاجر مهما تفهت تجارته و قلت قيمتها ، فانه إذا لم يقارن في آخر السنة بين الربح والخسارة و بين الإنتاج والعقم ، فانه يكون مغروراً بنفسه ، و إنه يكون تاجراً خاسراً قد يعلم فجأة أنه قد أفلس ، إن هذه العملية لا يستغنى عنها الفلاح الذى يصب عرق جبينه ، و يقوم في يوم صائف لافح ، أو في يوم شات شديد البرد ، و يبكر و يذر البذور الطيبة التى أودع الله فيها أمانة الزرع الكريم ، إنه إذا لم يحاسب نفسه ، و يحاسب إنتاجه ، و لم يقارن بين الربح و الخسارة ، و بين الزرع و الحصاد . كان فلاحاً مغروراً ، و كان معرضاً لخطر عظيم .

كذلك الجندى لا يستغنى عن هذه المقارنة ، إنه يفرض عليه أن يقارن بين فتوحه و انتصاراته ، و بين هزائمه و نكباته ، و بين وفاته لبلاده أو بين غدره بها - من حيث يشعر أو لا يشعر - و بين ما اكتسبه و بين ما ضيع ، و كذلك المعلم يجب عليه أن يقارن بين

إنتاجه و بين فضله أو إخفاقه ، إن مدير أى ثانوية أو مدرسة ابتدائية أو جامعة كبيرة ، إذا لم يقارن بين إنتاجه و بين خيبته ، و بين ماوفق له و بينما خسره من جهوده و طاقاته ، و آماله و أمانيه ، بين الشباب الذين أكرمهم الله بالاشراف عليهم و تربيتهم ، فانه فى الحقيقة مدير فاشل

وإن تقدم العلم و المدنية مدين فى الشئ الكثير ، لهذه المقارنة الامينة المحايدة المخلصة ، فالأمم و المدنيات و المجتمعات البشرية و الفلسفات كلها تعيش على هذه المحاسبة الدقيقة الامينة ، كذلك الحكومات التى هى عرضة لنواميس الرقى و التقدم و الازدهار ، و السقوط و الزوال ، كلها مكلفة بأن تحاسب نفسها ، و أن تحاسب تاريخها ، و رجالها و أدباها ، و زعماءها ، و هنالك كتب ألقت فى موضوع أسباب ارتقاء الحكومات و تقدمها ، ثم سقوطها و انهيارها ، و تكاد هذه المؤلفات فى كل لغة من لغات العالم المتمدن تكون مكتبة عظيمة ، و من خيار هذه الكتب على ما عندى من علم محدود ، الكتاب الشهير الذى دوى اسمه فى الآفاق ، و الذى استحقق به مؤلفه أن يعد من كبار المؤلفين و الكتاب العالمين ، ليس من كبار مؤلفى بلاد و شعب حسب ، ألا وهو جيون (Gibbon) الذى ألف كتابه الشهير - Decline and Fall of the Roman Empire - يعنى «انحطاط امبراطورية روما و سقوطها»

و الذى يتهرب من هذه المقارنة التى قد تكون ثقيلة بغضه ، وقد تكون عسيرة دقيقة ، فانه يتهرب من مسئولية عظيمة ملقاة على عاتقه ، إن من يتهرب عن أداء هذه الرسالة - فى صالحه - هو شخصه ، أو فى صالح أمته و فى صالح مجتمعه - فانه إما خادع وإما مخدوع ، إن الفرد إذا تهرب عن أداء هذه الرسالة وعن القيام بهذا الواجب الطبيعى الخلقى الشرعى ، الاجتماعى المدنى السياسى ، فانه معرض لخطر عظيم فى حياته المحدودة ، و إذا كانت أمة تتهرب عن هذه المسئولية التى يقوم بها الشجعان الأبطال الناصحون لأنفسهم ، المخلصون لأنهم . فأنها هى فريسة انهار أو فريسة سقوط ، بين عشية وضحاها .

إن من عيوب مجتمعتنا الذى يعيش فيه المجتمع الإسلامى العربى أنه يتصل من أن ينوء بهذا العبء الثقيل، بهذه المسئولية الضخمة ، أنه يجب الاطراء . أنه يجب المتلقين المجاملين ، الذين لا يتقون الله فى ضمائر هذه الأمة و فى عقولها و فى نفوسها ، و فى مصيرها .

إن الحكومات التى كانت تقوم فى العصر القديم على أساس شخصى . ارسقراطى ، ملوكى ، فقد اعتبر كبار المؤرخين - من عهد ابن خلدون ، ذلك الفيلسوف العربى المؤرخ الناقد إلى عصرنا هذا - من أكبر عيوب هذه الحكومات الشخصية إعجابها بالمطربين و انخداعها بشعراء

البلاط ، شعراء ، السراى ، الذين كانوا يكيلون المدح جزافاً ، فكان أحبهم إليهم أقدرهم على هذا الملقق و الاطراء ، و على المبالغات التى قيل عنها « إن أعذب الشعر أكذبه ، لقد زخر أدبنا الشرقى - مع الأسف الشديد - وبصفة خاصة الأدب الفارسى الذى اعتبر نفسى أحد تلاميذه و المعجبين به ، و زخر أدبنا العربى - من العهد الاموى إلى عهد المماليك - بهذا النوع من الملقق و المجاملة و الاطراء . المتجرد عن كل صدق و حقيقة ، و عن كل صراحة و شجاعة .

لقد اتسمت هذه الحكومات على اختلاف مناهج حكمها ، و على اختلاف مذاهبها و اتجاهاتها و بيئاتها ، و أزمنتها و عصورها ، بهذا العيب القادح ، الذى جنى على هذه الحكومات و جنى على ذلك الجبل الذى ابتلى بهذه الحكومات ، و لكن ليس عيب المجتمع الحاضر الذى نعيش فيه أقل من عيب تلك الحكومات التى قامت على تمجيد الأسر و الأعراف ، و على تقديس الدماء و العناصر ، و على تمجيد الذين فتحوا الدنيا بحمد سيفهم ، إن هذا المجتمع الذى نعيش فيه مالك شيئاً كثيراً من وسائل الثقافة ، و من وسائل الوعى ، و من وسائل إيقاظ الشعور ، و من وسائل فهم القضايا على حقيقتها ، لقد تقدمت فيه الصحافة و الاذاعة و استحدثت فيه آلات التعرف بالحقائق ، و لكن مع ذلك ليس مجتمعنا

الحاضر الذى تنتسب إليه جميعاً أقل اندفاعاً إلى المجاملة والمجاملين ،
و التملق و المتملقين من الحكومات الشخصية ، إن هذا المجتمع الذى
يدعى الوعى، ويدعى بلوغ سن الرشد، ويدعى التقدم فى المدينة والحضارة
و فى السياسة و الصحافة ، لا يزال طفلاً قاصراً ، لا يزال ضعيف
العقلية ، ضعيف النفس ، ضعيف الإرادة . ضعيف الثقة ، قليل المعرفة
بعبويه و بنفسه .

إن الفرد إذا ابتلى بهذا المرض، مرض الإعجاب بالتملق والمجاملة ،
وستر العيوب، فإنه فرد سائر فى سبيل التلف و الهلاك، فى سبيل الدمار
و الضياع ، فكيف بشعب بأسره يعيش فى الأحلام و الأوهام و يعيش
فى البرج العاجى ؟!

إن المقارنة بين الأرباح و الخسائر ، كما قلت ، من ضرورات
الحياة المتقدمة الواعية ، يجب علينا أن نتصف أنفسنا و أن نكون شجعاناً
أبطلاً مغاوير ، مجازفين بالحياة ، صرحاء صادقين فيما يخص أنفسنا
و يتصل بحياتنا ، فلنشهد على أنفسنا ، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين
بالقسط شهداء لله و لو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين ، (١)
هكذا يقول القرآن ، و يقول : « و لا يجرمنكم شأن قوم على أن
لا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، (٢) .

إنى أريد أن أقارن بين أرياح الشعوب العربية

و هذه البلاد التي تجتمع فيها و تنظر ماذا ربحت و ماذا خسرت .

أريد أن تكون جميعاً رياضيين و أقبعين . غير خطايين و خياليين .

يجب علينا أن نحدد تلك المقاييس الصحيحة التي

نستطيع أن نقيس بها نجاح شعب و انتصاره ، و فشله و إخفاقه .

و أول هذه المقاييس هو انتشار الدعوة و العقيدة التي يحملها هذا

الشعب ، إنى لا أوافق على من يعتبر أن المقياس الأول الذي تقاس به

انتصارات أمة و نجاحها . هو قيام امبراطورية ، و قيام ملك عريض ،

و حكم واسع ، و فتح أكبر مساحة من الأرض ، إنى سأحدث إليكم عن

هذه الناحية و هى ناحية لها قيمتها و حسابها . و لكن اسمحو لى أن

أن أقدم قضية العقيدة و قضية الدعوة . لأن الأمة التي تعرف قيمتها ،

و تعرف قيمة الحياة الإنسانية ، و تعرف قيمة هؤلاء البشر الذين يعدون

بالملايين ، فانها تعتبر العقيدة التي تؤمن بها ، و الدعوة التي تحتضنها

و تحملها ، أعز و أثنى من قيام إمبراطورية من غير عقيدة و من

غير دعوة .

فأولاً نعالوا نفس مقدار النجاح الذي حققته هذه الأمة في مجال

انتشار الدعوة التي أكرمها الله و خصها بها ، كستم خير أمة أخرجت

للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله ، (١)
« و إنه لذكر لك و لقومك و سوف تستلون ، (٢) إنه المقياس الأول
الذي يجب أن تتمسك به و نعص عليه بالنواجذ ، إذا كنا أمة ذات
ضمير و مبدأ ، أمة ذات أهداف معينة و رسالة ، أمة ذات ارتباط
بمصير الانسانية .

فأقول أولاً تعالوا نستعرض مقدار النجاح الذي نالته هذه الأمة
في سبيل انتشار هذه الدعوة ، كيف انتشرت هذه الدعوة التي حملها
العرب من هذه المدينة المقدسة ، لما خرج المسلمون يحملون المشعل
الاسلامي ، يحملون الشعلة الايمانية ، و الدعوة الاسلامية ، كيف انتشرت
دعوتهم في مشارق الأرض و مغاربها .

إنني أيتها الاخوان أستطيع أن أصور لكم ، ذلك العالم الجاهلي الذي
كان يعيش في القرن السابع المسيحي ، ولكن است في حاجة لاستعراضه
و تصديره ، فقد تكونت مكاتب ضخمة واسعة ساهم في تدوينها و تكويرها
كبار الكتاب و المؤلفين ، لقد انتشرت هذه الدعوة في نصف قرن ،
في نصف المعمورة ، كما يقول المؤرخون الاوربيون ، و لا أقول كيف
انتشرت لحسب ، بل كيف تغلغلت هذه الدعوة الاسلامية في أحشاء

الاسر الانسانية ، و كيف استطاعت أن تتسرب إلى بيوت وأسر وإلى أعماق النفوس و امتزجت بعقول الناس امتزاجاً لم يكن لأكبر كيميائى و أكبر محلل فى ذلك العصر أن يفصل هذه الأجزاء التى امتزجت بالعقول الانسانية و بالمشاعر الانسانية ، مهما بلغ من قوة التحليل ، و من قدرة التجزية ، و من قدرة الفصل .

إننا إذا أخذنا — على سبيل المثال — قضية الهند فقط ، فإن الحضارة الاسلامية قد امتزجت بالحضارة الهندية العتيقة ، و قد تغلخت فى أحشائها و قد أصبحت جزءاً لا يفصل ولا يتجزأ من هذه الحضارة ، فإذا وضعنا هذه الحضارة فى أكبر معمل كيميائى تاريخى تحلل فيه الحضارات كما تحلل فيه الأجزاء البسيطة ، كما تحلل فيه الأدوية لم تستطع هذه المعامل على دقتها و دقة آلاتها من تحليل و فصل هذه الأجزاء الكريمة ، الدقيقة الناعمة ، التى دخلت فى أجزاء هذه الحضارات و الفلسفات .

هذا أكبر انتصار حققه العرب فى أقل مدة عرفها التاريخ و هو انتشار الدعوة و انتشار أسلوب التفكير و تغلغل هذا الأسلوب الخاص فى التفكير فى عقول هذه الشعوب التى قبلت الاسلام ، و لا تزال هذه الأجزاء بمنزلة مقرونة بالحضارات الشرقية العصرية إلى هذا اليوم ،

خذوا أى مسلم فى الهند واستعرضوا حياته من الصباح إلى المساء ، ومن اليوم الذى ولد فيه إلى أن يوضع فى قبره ، تناولوه بالتحليل الكيماوى و تناولوا بالتدقيق تجدوا مظاهر العقيدة الاسلاميه و تجدوا شعائر الاسلام بمنزجة بلحمه و دمه ، و بتفكيره و عقلته ،

ماذا يسمع الانسان فى ربوع الهند و باكستان و ايران ، أى صوت يسمع هنا ؟ الصوت الرخيم المدوى فى الآفاق ، أول صوت يسمعه حين تسكت جميع الأصوات و حين يسود الظلام المطبق ، و حين يحكم الصمت الرهيب ، هنالك يسمع الصوت الوحيد « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمد رسول الله ، باللفظ العربى البليغ ، اللفظ العربى الذى سمعناه الآن فى أذان العشاء فى مسجد الرسول عليه الصلاة و السلام .

هذه الرسالة التى بعث الله بها نبيه و اختار لها هذه الأمة الكريمة ، من كان يستطيع أن يتكهن مهما أوتى من الالعية و من الفراسة ، و بعد النظر ، ان هذا الصوت يسمع فى وقت قريب فى أقصى الشرق و فى أقصى الغرب .

إنكم تعودتم أن تسمعوا هذا الأذان فى ربوع المدينة فاستهتم بقيمة صوت تسمعونه خمس مرات ، يرتفع فى هذه الأجواء الممتزجة

بالاسلام فلا تستغربونه و لا تحسبون له حساباً ، و لكن افرضوا
 و تصوروا ايها الاخوان انكم في اقاصى الهند و حواكم اوثان و أصنام ؛
 حواكم معابد و هياكل ، حواكم كل شئ يدل على أن هذا المجتمع لم يعرف
 خالقه ؛ و ليس له صلة بخالق هذا الكون ؛ و إذا عرفه لم يعرفه إلا عن
 طريق الوثينة و عن طريق الخرافة ، تاملون يوماً هادئاً لا عهد لكم بشئ
 فلا تستيقظون إلا على هذا الصوت ، أى قرية من قرى الهند ، أى قرية
 منعزلة مفضولة تعيش في عزلة عن العالم لا يسمع فيها إنسان زائر من
 هذه البلاد العريقة في الاسلام هذا الصوت الجميل ، هذا الصوت الذى
 أذن الله أن يرفع ، و في بيوت أذن الله أن ترفع ، إنه لا يسمع
 ناقوساً و لا يسمع أصوات الباعة إنه لا يسمع شيئاً إلا هذا الأذان .
 ثم يجد هناك على مر العصور ، و على قسوة العوامل الى اشتغلت
 هذه المدة الطويلة في فصل الانسان عن هذه المنابع الكريمة ، منابع
 الايمان ؛ يجد آفاقاً من الذين يحفظون القرآن الكريم و يستطيعون أن
 يقرؤه كما نزل ، غضا طرياً ، و أيام رمضان ليست يعبده فسترون كل
 مسجد فى حى من أحياء كل مدينة أو قرية عامراً بالمصلين ، يحتج فيه
 القرآن ، إنه لمسجد مهجور ، إنه مسجد يرثى له أهله ، و يستحى منه
 أهل بلده لا يحتج فيه القرآن ، إذا أردتم أن تعرفوا عدد الحفاظ الذين

يقرون القرآن بظهر القاب فان عددهم يبلغ إلى آلاف و آلاف بتجويد
و بكل دقة

ثم هناك مدارس دينية تعنى بلغة القرآن و بعلوم القرآن و علوم
الدين ، هذه مظاهر حياة قد مضت عليها أحقاب طويلة و قسا عليها
الزمان ، و تأمرت عليها العوامل المدمرة المخربة التي كانت كفيلة بالقضاء
عليها ، و لكن لا تزال هذه المظاهر موجودة في كل بلد إسلامي

ثم هناك تجدون قوة العاطفة الاسلامية و قوة العقيدة الاسلامية،
و كيف ملكت القلوب و العقول ، و كيف دخل حب النبي العربي في
أعماق النفوس ، كيف ترون هناك شبابا قد استهواهم الشباب ، و قد
فتنتهم زخارف الدنيا ، و أفسدتهم التربية العصرية ، و استحوذت عليهم
المادة ، و ليكن إذا سمعوا هذا الاسم الحبيب يرونهم يكادون يفقدون
رشدهم إنهم يتهاكفون في سبيل الحفاظ على شرفه ، و في سبيل الدفاع
عنه ، و قد كان من الحقائق المقررة التي سجلها التاريخ في الهند إنه ما
أقلت أحد في شبه القارة الهندية إذا تناول شخصية النبي الكريم باهانة
أو إساءة ، لم يفلت من عقوبة ينالها من المسلمين إنه لم يسلم من هولاء
أحد و لم ينج بحياته ، هذا ما سجلته دواوين الحكومة الاكليزية .

و ليس في الهند و باكستان اللذين كثر حديثي عنهما ، بل في كل

بلد إسلامي ، هذه تركيا قد اجتمع فيها زعماء من أقوى الزعماء الذين
أوجدوا الشرق ، لو وجد مثل هؤلاء الزعماء العصاميين الذين قويت
أرادتهم و الذين اجتمعت في شخصيتهم أقوى عناصر الزعامة ، لو وجد
هؤلاء الزعماء في أي بلد من بلاد العالم لاقضى على الإسلام والعقيدة في
ذلك الشعب ، و لحبا مصباح تلك العقيدة ، و لكن بفضل قوة العقيدة في
استطاع الشعب التركي أن يحافظ على عقيدته و أن يخرج من هذه
المعركة ظافراً منصرفاً لم يلحقه غبار .

إن هنالك مقياساً آخر ، هو مقياس انتشار
الثقافة و انتشار اللغة ، و هذا مقياس عزيز لدى الشعوب ، و قد يرضى
شعب بأن يتخلى عن امبراطورية عظيمة ، و لا يرضى أن يتخلى عن تأثير
ثقافته و لغته و حضارته في بلاد قد حكمها مدة طويلة ، خذوا الانكليز
مثلاً ، هؤلاء الانكليز فضلوا أن يتخلوا عن الهند ، الدرّة الفريدة في
تاج امبراطور بريطانيا ، لقد رضى الانكليز أن يتخلوا عن هذه
الامبراطورية مادياً و جغرافياً ، لأجل بقاء حضارتهم و ثقافتهم
و لغتهم و مدنيتهم ، ففضلوا بقاء الحضارة و بقاء الصلات الطيبة بين هذا
الشعب و بين الشعب الانكليزي على حكمهم في هذه البلاد ، هذه اللغة
الانكليزية لا تزال هي اللغة الزعيمة ، التي تحتل المكان الأول في المجتمع

الهندي و في الصحافة و الاذاعة ، و في المجالس التشريعية ، و في الجامعات
هذه سلوى يتسلى بها كل انكايزي، وله كل حق أن يتسلى بذلك فبقا هذه
الثقافة و هذه اللغة ، انتصار كبير يتباهى به كل شعب .

قيسوا مقدار انتصاركم الذي حققتموه أيها العرب في الحقبة التي
كان الاسلام يسود فيها في بلاد العجم ، وكانت له الكلمة العليا ، وكان
القرآن يتلى و العلوم الدينية تدرس في بيوتها و مدارسها ، و في مساجدها ،
هل تعرفون مقدار الانتصار الذي أكرمكم الله به و حققتموه عن
طريق الدعوة الاسلامية ؟

إنني أشك أيها الاخوان في أنكم تقدررون هذا الانتصار تقديراً
صحيحاً ، إن هذه الشعوب العجمية قد احتضنت لغتكم و ثقافتكم ، و ضمتها
إلى صدرها ، و فضلتها على ثقافتها و على لغاتها التي توارثتها من آلاف
السنين ، و نخلت عن لغتها ، هذه البلاد قد أحبت اللغة العربية و اعتنقها
و أحلتها من نفوسها و قلوبها مكاناً لم تشغله لغاتها القديمة ، و نبغ فيها
عقريون ، نبغ فيها أئمة مجتهدون ، نبغ فيها صابرة كلام العرب ،
لا أحدث عن عدد المحدثين ، و لا أحدث عن اتاجهم في فن الحديث ،
فان هذه ضريبة العلوم الدينية عليهم ، كانوا يؤدونها عن طيبة نفس ،
لا أحدث عن العلوم الدينية و لا عن عدد المفسرين و عن عدد الفقهاء

فلائهم بحكم إسلامهم ، كان يجب عليهم أن يدرسوا العلوم الدينية كما تدرسونها أتم ، وأن لا يكونوا أقل نصياً في هذه العلوم الدينية منكم ، لكنني أحدثكم عن اللغة العربية ، عن خدمتهم للمعاجم العربية ، عن انقطاعهم إلى دراسة اللغة العربية الفصحى، عن تحقيق غريبها ، وجمع شواردها ، وتدوين معاجمها ، فهناك مآثر لغوية تتجمل بها المكتبة الاسلامية العامة ، فضلا عن المكتبة الهندية ، هنالك معاجم ألفت في إيران ، ألفت في شبه القارة الهندية ، وهي تعتبر في طبعة المعاجم العربية ، ومصدراً للمعاجم العربية التي تبعها .

مالذي دفع هذا الرجل العجيب الذي قضى حياته في بلاد الهند كالعلامة الشيخ حسن ابن محمد الصغاني اللاهوري (م ٦٥٠) إلى أن يؤلف كتابه العظيم العباب الزاخر في اللغة ، إنني لا استغرب انه ألف كتابه مشارق الأنوار في الحديث ، ولكنني استغرب أن يؤلف معجماً كبيراً في اللغة العربية .

و كتاب تاج العروس شرح القاموس (١) ، من ألفه ؟ ألفه رجل هندي صميم من ذؤابة أسرة هندية قديمة تنتمي إلى بيت الرسول عليه الصلاة والسلام إنه العلامة السيد مرتضى الزبيدي (م ١٢٠٥هـ)

(١) كتاب تاج العروس شرح القاموس في عشرة مجلدات كبار وفي خمسة آلاف صفحة .

غلب عليه لقب الزيدى لطول إقامته في زيد الدين ، إنما هو البلكرامى ،
و بلكرام تتمع في الولاية الشمالية الغربية قريب من بلدى .

أشددكم بالله ، إذا لم تكن هناك قوة العاطفة الاسلامية و قدسية
اللغة العربية التي حلت في قرارة النفوس ، أى دافع وأى طمع في المال
و المادة كان يدفع مثل هذا الرجل إلى تأليف مآثرته العظيمة .

هل يوجد لذلك نظير في تاريخ الثقافة الانكليزية المنتشرة في الهند ،

لقد حكم الانكليز في الهند أكثر من قرن ، و نشأت تحت حكمهم
أجيال وتعلم في جامعاتهم أذكى شباب الهند وتخرج فيها الوف الآلاف ،
فهل وجد محقق لغوى ألف معجماً يعترف به أدباء الانكليز ، أو صاحب
أسلوب خاص يعرف به ، أو مورخ كبير أو مؤلف نال اعجاب الانكليز؟
إننى سألت في الهند وسألت في إنجلترا هل يعترف أدباء الانكليز بأديب
مسلم هندي أو بأديب هندوسى ، قالوا : لا يعترفون إلا ببضعة أشخاص
وفي نطاق محدود ، هل استطاع الذين تعمقوا في الدراسة اللغوية في
كيمبرج و أكسفورد وفي جامعات الهند الكبيرة أن يخرجوا للعالم أديباً
يفتن به الانكليز ، و لماذا لم تستطع اللغة الانكليزية مع أنها لغة عصرية
يتكلم بها ملايين من البشر ، و الآداب الانكليزية التي تدرس في
جامعات كثيرة أن تخرج نوابغ و عبقرين فيها في الهند ؟ ، و لماذا

لم يتيسر للشعوب المحكومة للانكليز أن تنجب رجالاً يراحمون الانكليز في هذه الآداب مع كثرة الدوافع بأسباب التشجيع ؟ ، و تيسر ذلك لعلماء الهند في العلوم العربية و آدابها في ظل حكومات غير عربية ؟ هذا لأن صلة الشعوب المحكومة باللغة الانكليزية ، صلة مادية سياسية أو اقتصادية مجردة عن كل عقيدة و عاطفة ، أما صلة المسلمين باللغة العربية فهي صلة روحية ، دينية ، عاطفية ، وجدانية ، و شتان بين الصلتين . ||

أسألكم بالله ما الذى دفع السيد مرتضى البلكرامى إلى تأليف شرح القاموس ؟ هل القاموس كتاب مقدس ؟ هل القاموس صحيح البخارى؟ هل القاموس كتاب فقه ؟ لا ، إنما هو كتاب يخدم اللغة العربية التى نزل فيها القرآن ، لولا هذه الصلة الكريمة ، لولا هذه الصلة الحسية ، هذه الصلة التى يحرص عليها الهندي واليرانى وكل يجمي ، لما توفر هذا الرجل العظيم ، هذا العبقري ، على دراسة هذه اللغة و التعمق فيها ، و النزول فى أحشائها ، إلى أن يستطيع أن ينتبع هذا الكتاب العظيم .
أيها الاخوان . إنها معجزة الاسلام ، أيها القوميون هاتوا معجزة تساوى هذه المعجزة الخالدة ؟ .

• هل أزيدكم أيها الاخوان استغراباً و إعجاباً ، هل أزيدكم الشواهد و الدلائل على إعجاز هذا الدين ؟ ما هي أكبر المصادر فى شرح

المصطلحات الفنية العربية ، إن هناك كتابين لا ثالث لهما بهذه المكافحة العلمية ، إسألوا أهل الاختصاص في هذا الفن ، لم يؤلف في التاريخ الاسلامى الطويل كتاب أحسن في شرح المصطلحات العلمية من كتاب « كشف اصطلاحات الفنون » للشيخ محمد اعلى التهانوى من رجال القرن الثانى عشر و كتاب دستور العلماء للشيخ عبد النبي الاحمد نكرى ، وكل كتاب من هذين الكتابين ، إنما ألف في الهند ، وُلّفان في بيئة لا يتكلم بها أحد بالعربية ، ولكنها معجزة الاسلام ، نعم ولكنها نتيجة هذه الصلة العزيرة ، هذه الصلة الروحية العميقة التي تقوم بين اللغة وبين هذا الرجل ، وبين شعب هذا الرجل ، وبين مواطني و مشاعر هذا الرجل و هذه قطرة من بحر .

أيها الاخوان ، إذا حدثكم عن إنتاج علماء القارة الهندية في حقل اللغة العربية ، في حقل الثقافة الاسلامية ، في حقل العلوم التي نبعت و انبثقت من القرآن ، كالصرف و النحو و علوم البلاغة ؛ و أى صلة للعجم بعلمى الصرف و النحو و بالعروض العربى و البديع و المعانى والبيان و بعلوم البلاغة ، ؟ أى صلة بينهم و بين هذه العلوم ؟ إنهم في زحمة من علومهم ، و من الفنون التي قد تفنن فيها آباؤهم ، و بلغوا الذروة العليا فيها ، و قد كانوا في شغل شاغل عن الاعتناء بهذه العلوم العربية ،

لعلكم لا تصدقوننى ، إذا قلت لكم إن رجلاً قد رأيتُه بعينى و مات قريباً
فى سنة ١٣٦٦هـ إسم الشيخ محمود حسن التونكى هو شقيق أستاذى الذى
قرأت عليه علم الحديث هذا الف كتاباً إسمه « معجم المصنفين » قد ذكر
فيه كل من وصل إليه علمه عن أثر عنه تأليف فى العلوم العربية . أو فى
العلوم الإسلامية هذا كتاب يقع فى ستين مجلداً . اشتمل على عشرين
ألفاً من الصفحات ، و فيه تراجم أربعين ألف شخص ، قد طبع من
هذا الكتاب أربعة أجزاء فى بيروت على نفقة حكومة حيدرآباد .

أى معجزة أعظم من هذه المعجزة فى هذا العصر ، هاتوا أيها
القوميون دليلاً واحداً على إخراج هذه القومية العربية آية يؤمن بها
أى شاهد على نجاحها فى حقل نشر اللغة العربية التى يشجعون بها كثيراً ،
والى يستغلون إسمها كثيراً . هذه معجزات الإسلام فأين معجزات
القومية العربية ؟

والنظرة العجلى على كتاب والذى مولانا عبد الحى الحسى رحمه
الله « الثقافة الإسلامية فى الهند » هذا الكتاب طبعه مجمع اللغة العربية
فى دمشق تكفى لمعرفة ضخامة إنتاج علماء شبه القارة الهندية فى حقل
الثقافة الإسلامية . و فى كل فن من الفنون العربية مآت من المؤلفات
من الذى دفعهم إلى هذا الإنتاج الضخم ، لا حكومة كانت تكافى ، ولا

مجتمع يعترف بفضلهم ، و لا جائزة تقدم ، و لا تشجيع بالنونه . لا شئ ،
إنما هو في سبيل الاسلام ، في سبيل خدمة العقيدة الاسلامية ، في سبيل
خدمة تلك اللغة التي أحبوها و أحلوها في حبات قلوبهم ، و سويدها
نفوسهم ، أحبوها أكثر من لغتهم ، لأنها لغة رسولهم ، لأنها لغة
كتابهم الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور ، الذي أخرجهم من
الجاهلية إلى الاسلام ، الذي أخرجهم من حكم الناس للناس ، و من
استعباد الناس للناس إلى حكم الله وحده .

هذه معجزات الاسلام الخالدة ، و إذا زرتهم هذه البلاد ترونها
متمسكة بأهداب اللغة العربية ، عاضة عليها بالتواجد و كل شئ يزهدم
فيها ، إن كل عامل من العوامل السياسية و الثقافية و الاقتصادية ،
و الاجتماعية كلها يفري يزهدم وانصرافهم عنها ؛ ولكن قوة الاسلام
هي التي تربطهم بهذه الفنون .

و أتحدث الآن عن الناحية التي أخرتها ، ناحية الامبراطورية ،
هل تعرفون الامبراطورية التي حكمها العرب بفضل الدعوة الاسلامية ،
فلولا الدعوة الاسلامية لما كانت لهم كلمة مسمرعة ، و لا راية مرفوعة ،
لما خرجوا من هذا السجن الضيق الذي عاشوا فيه قرونأ ، لو لا دعوة
الاسلام ، و لو لا تفانيهم في سبيل الاسلام ، و لو لا حرصهم على اسعاد

البشرية لما خرجوا من هذا القفص المظلم الذي كانوا يعيشون فيه ، لا شرف و لا قوة ، و لا رزق و لا علم و لا ثقافة ، لا طموح و لا استشراف ؛ فلما خرجوا من هذا القفص ، لا أقول القفص الذهبي الذي كان يعيش فيه الفرس و الرومان ، لا ، هذا القفص الحديدى المظلم الضيق ، لما خرجوا يحملون الدعوة الاسلامية ، هل تعرفون ما هي المساحة التي فتحوها في نصف قرن و ما هي المساحة التي كانوا يحكمونها أيام حكمهم ، في العهد الاموى و في العهد العباسى ؟ هل تصدقون إذا قلت لكم شهادة المؤرخين الغربيين أن الامبراطورية الاموية الاسلامية العربية التي كان يحكمها الوليد بن عبد الملك ، ما كان يمكن لاحد ان يقطعها على أسرع جمل في أقل من خمسة أشهر .

و هل تحفظون هذه الكلمة التاريخية الخالدة المجلجلة العربية التي انطلقت من شفتى ملك من ملوك العرب المسلمين الخليفة هارون الرشيد ماذا قال لما رأى قطعة من السحاب ، تمر من السحاب ، هل تذكرون ماذا قال لها ، امطرى حيث شئت فسياتنى خراجك ، إلى هنا بلغت الامبراطورية العربية الاسلامية التي قامت على أساس الدعوة الاسلامية ، امطرى حيث شئت فسياتنى خراجك، انظروا إلى هذه الثقة التي كان يشعر بها ، الثقة باتساع مملكته ، و الثقة بأن هذه القطعة من السحاب ،

هذه القطعة المتجرلة الحرة التي تطير في الفضاء لا تستطيع أن تتجاوز حدود مملكته ؛ من استطاع أن يقول مثل هذه الكلمة من الملوك السابقين ؟

و لماذا لا يستطيع زعمانا القوميون أن يوسسوا هذه الامبراطورية ؟ أتركوا حديث الامبراطورية ، هذا حديث ماض و أسطورة من أساطير الاولين ، هل استطاع الزعماء القوميون أن يحلوا مشكلة من مشكلاتهم ؟ هل استطاعوا أن يحلوا مشكلة فلسطين ؟ هل استطاعوا أن يستردوا هذه الدرة المفضوبة التي ضيعوها بالأمس القريب ؟ ماذا أنتجت القومية العربية ؟ أين هذه الدعاوى العريضة الطويلة ؟ هؤلاء الأجلاف من العرب ، « لا تواخذوني ، هؤلاء البدو ، الأميرين ، استطاعوا أن يوسسوا هذه الامبراطورية التي خفقت أعلامها في مشارق الأرض و مغاربها .

و ماذا حققنا ؟ من الانتصارات الباهرة في هذا العصر الذي ظهرت فيه القومية العربية ، و الذي انتصر فيه العرب على نفوسهم و على مسائلهم و على قضاياهم و على مشكلاتهم

ماذا فعلوا ؟ أولا خسروا مركز القيادة العالمية ، كانوا يفكرون التفكير العالمي كانوا يفكرون في مصير الانسانية ، كان يهمهم أبعد

رجل في العالم ؛ تنادى امرأة في أقصى الهند وهي تقول : (واحدججاه)
و كان الحجاج يعتبر نفسه مسؤولة عن عرض هذه المرأة ، و تنادى
مرة أخرى امرأة في عمورية (١) في أقصى الشمال الغربي و هي تقول :
وامعتصاه ا والمعتميم يعتبر نفسه مسؤولة امام الله عن هذه المرأة الضائعة
المهددة ، و كانت العاقبة ، انطوينا على أنفسنا ، انطوينا على قضايانا ،
و انحسرنا في برك صغيرة كالاسماك و الضفادع ، لا توأخذوني أيها
الاخوان ، إننى صريح ، إننى قاس ، إنكم كنتم سيد الغاية ، كنتم سيد
البحار ، كنتم سيد البرارى ، كنتم تفكرون في مصير الانسانية كلها ،
رجل يناشدكم الله و يناشدكم الاسلام فتسرعون إلى نجدة ، ماذا أعطانا
هؤلاء الزعماء ؟ هؤلاء الاسياد الذين أشبعونا كلاماً ودعاوى ، ماذا كان
تأثيرهم في حياة العرب . و في حياة البلاد التي يحكمونها ؟ اطفئوا هذه
الجرة الايمانية ، جففوا الينابيع الايمانية التي كانت كقيلة بكل انتصار ،
جففوا هذه المنابع ، سلطوا عليها عناصر خارجية و عناصر داخلية ،
سلطوا عليها هذه الصحافة المساجنة ، سلطوا عليها هذا الأدب الداعر ،
سلطوا عليها هذه الاذاعات الرقبة ، سلطوا عليها هذه الروايات الخليعة ،
سلطوا عليها السكارى الماجنين ، الذين عبثوا بهذه المنابع التي فجرها

(١) ولاية بيزنطية في الاناضول .

الرسول عليه الصلاة والسلام ، وجرها الايمان ، التي فجرتها التربية
الاسلامية ، بما رجعوا ؟ رجعوا بخفي حنين ا

لما حى الوطيس لما كشفت الحرب عن ساقها وكشرت عن
أنيابها ، لما نادى منادى القوم أين الذين يتقدمون إلى الميدان ؟ تأخر
المؤمنون بالقومية العربية والبعث العربي ، لا عقيدة ولا حماسة عندهم ،
لا آخرة عندهم ، لا لجنة أمامهم ولا نار أمامهم ، إنهم قضوا على تلك
العناصر الايمانية الطيبة ، التي كانت تستطيع أن تغلب العروش ، عروش
الملوك التي كانت تستطيع أن تقيم القيامات ، التي كانت تستطيع أن
تصنع العجائب ، وأن تظهر المعجزات ، وقد فعلت ذلك مراراً في
تاريخكم ، أينما وجدت هذه العناصر الايمانية أعاد التاريخ هناك نفسه ،
إسألوا بعض إخوانكم وزملائكم هنا ، الذين خاضت حكومتهم في بعض
المعارك الحربية ، ما هي المعجزات التي ظهرت هناك ، ما هي العجائب
التي صنعها الايمان القوى ، ثم ماذا كان في معركة القنيطرة ؟ ماذا كان
في جزيرة سينا ؟ ماذا كان في الجبهة الشمالية في سورية ؟ وماذا كان في
خامس حزيران ؟ إنني لا أريد أن أتحدث عنه طويلاً فان الجروح
لا تزال تسيل دماً ، وإن العيون لم تجف دموعها بعد .

خلفوا فراغاً ولم يستطيعوا أن يملأوا هذا الفراغ ، إن فراغ

العقيدة لا يملأ إلا بالعقيدة ، إن فراغ الايمان لا يملأ إلا بالايمان ،
إن فراغ القلوب الفيضة ، القلوب الدافقة بالحياة ، القلوب الحارة .
لا يملأ إلا بالقلوب الدافقة بالحياة ، والقلوب الفيضة ، والقلوب الحارة ،
إن القومية العربية ليست فارس هذا الميدان ، إنما هي بطل الكلام
و بطل الدعاوى .

ثم ماذا كان به توزع العزب في معسكرات معارضة ، متباغضة متنافسة ،
كان الايمان يجمعهم ، انحلت عقدة الايمان ، انتشرت المعسكرات ، انتشرت
الألوية و الرايات ، زعامة ضد زعامة ، و قيادة ضد قيادة ، و سيادة
ضد سيادة ، ثم ضاعت الجهود ، الجهود الجبارة التي كانت تستطيع
أن تصنع معجزة ، هذه الجهود ضاعت في المؤتمرات ، في قالب نظام
الحكومة .

ثم ماذا استفدنا من الاشتراكية ؟ إن هذه البلاد التي «سعدت»
بهذه الاشتراكية أصبحت كشجرة جرداء في الحريف ، تجردت من كل
ورق ، تجردت من كل ثمر ، تجردت من كل صلاحية النماء ، لا خبز
و لا ثياب و لا كرامة و لا شرف ، و لا عقيدة و لا مبدأ و لا حرية
الرأى و لا حرية الصحافة ، فلنقارن ماذا ربحنا و ماذا خسرنا .
سلوا هذه البلاد ، أين الرجال النوابع الذين أنجبتهم هذه البلاد

في الماضي القريب ؟ أين العلماء الكبار ؟ أين الكتاب ؟ أين المفكرون ؟
أين السياسيون النابغون ؟ أين القادة المخنكوت ؟ أين رجال الحرب ،
تجردت هذه البلاد تجرداً كاملاً عن هذه العناصر الطيبة .

هل استطعنا أن نسترد ما فقدناه من صميم بلادنا . من قطع
نفوسنا ؟ أسسنا حكومات قوية ثابتة مستقرة ، هل استقرت الأوضاع ،
هل سار الهدوء و السلام ؟ هل اطمئن الناس ؟ هل انتشر الرخاء ؟
هل تمتع الناس بالحرية ؟ هل وثق الناس بعضهم ببعض ؟ هل اتقلت
من جحيم إلى نعيم ؟ .

إنني أطلت معكم أيها الاخوان ، إنني أشعر بأني قسوت ، وإنما
قسوت معكم لارضاء ضميري ، و لأودي شهادة في عنق فاني لا احتاج
إلى اعتذار .

إن قيمة كلمتي أيها الاخوان ، إذا كانت لها قيمة ، ليست القيمة
الأدبية ، و ليست القيمة الخطائية ، فانها الصراحة ، فانها الصدق . إنها
الثقة بأن أودي الشهادة ، واني أبلغ الأمانة ، و إنكم لما طبعكم الله عليه
من السماحة و كبر الهمة و النفوس و من الاحتمال الكريم ، إنكم
تستمعون لكلمتي الصريحة بكل سماحة ، و احتمال و صبر ، و إنني أشكركم

على ذلك ، أرجو انى قد قمت ببعض واجبي ، وانى أرجو أن يغفر الله تقصيرى و أن يسامحنى فيما قلت ، و أن ينفعنى وينفعكم جميعاً بهذه الكلمة التى ما دفع إليها إلا الاخلاص و حب هذا الدين الذى ارتبط مصيره بكم ، و ارتبط مصيركم به أكثر مما ارتبط مصيره بكم .

إن وراء البحار شعوباً قد ربطت مصيرها بالاسلام و استعدت لاداء قيمتها الباهضة ، قيمة هذا العزم . لو اندمجوا فى القوميات المحلّية لو تفرغوا و ذابوا فى هذه البوتقة الهندية ، المجوسية ، النصرانية ، فى البيئات التى يعيشون فيها من قرون لاستطاعوا أن يعيشوا هناك احراراً مكرمين ، لا يتعرضون لآى خطر و أى تهديد . ولكن كل هذه العقوبات التى تنزل بهم ، و كل هذه الغرامات التى تفرض عليهم إنما فى سبيل الانتباه إلى الاسلام ، فى سبيل الانتساب إلى الرسول عليه الصلاة و السلام و فى سبيل عطفهم على القضايا الاسلامية .

